جاهلية غربية(١)

نشرت صحيفة أسبوعية لأحد رجال القانون في جامعة كبيرة هذه الْبَهْتَةَ الرعناء: (إن الرجوع إلىٰ النظم الإسلامية بعد أن أدمجنا قوانيننا في مجموعة القوانين التي يسير عليها المجتمع الدولي ينطوي علىٰ معنىٰ الرجعية المناهضة لسنن التطور).

ذلك نص ما قاله ذلك الأستاذ الذي وكل إليه تربية فريق من شبابنا، وتوجيههم الوجهة الصالحة التي يخدمون بها أمتهم ووطنهم، ويسعون لتحقيق المثل العليا للقيم الدينية والخلقية والاجتماعية، وتقويم ما يُعْرَضُ عليهم من أقضيات الحياة بالحق والعدل، فكان خير ما علمهم إياه أن المجتمع الدولي أحكم وأعدل من الله، وأن شرعة الله لا تستطيع إقامة الحق والعدل ولا إفاضة الخير، وأن الحكم بكتاب الله رجعية تناهض سنن التطور، ولم لا؟ والتطور هو الخلاق عند الأستاذ وقرنائه!!

ولقد شخص بصري طويلًا إلىٰ اسمه الكريم لعلي أستشف منه ما يدل علىٰ قومه ودينه؛ بَيْد أني - ويا أسفاه - رددت الطرف موجع القلب، حيران اللب، إذ كنت أود أن يكون غير مسلم، فيجد من يحاول تلمس عذر لمثله أثارة من عذر له، لكني وجدت اسمه يدل علىٰ أنه ينتسب باسمه في شهادة الميلاد إلىٰ هذا الدين السمح الذي يبهته بالرجعية بعض المنتسبين إليه؛ كنت أود أن يكون إنجليزيًّا، أو صهيونيًّا، أو شيوعيًّا، فأقول: شنشنة نعرفها من حقود، ولكنني وجدته ينتسب في

(١) (٤/ ١٣٧٣).

شهادة الميلاد أيضًا بجنسيته إلىٰ مصر!!

وعدت أقول في غفوة الحلم الساجي: لعل المقترف لهذه الفرية رجل أمي الفكر، لا يميز بين الحق والباطل، أو بين الخير والشر، أو بين الإيمان والكفر، بل بين فلق الصبح الوضيء وعتمة الشتاء المدلهم؛ وكادت همسات الحلم تروِّح عني بعض ما أنا فيه من هم روحي عاصف، لولا تذكري أنه أستاذ يدرس القانون في جامعة كبيرة!!

وثَمَّتَ صاح الأسىٰ من أعماقي: يا لضيعة الشباب إذا كان مثل هذا الأستاذ يشرف علىٰ تثقيفه!

إن ما بهت به الأستاذ شريعة الله المحكمة المطهرة يدل دلالة بينة علىٰ أن منا فريقًا لا يزال يستحب العبودية الذليلة الخانعة للبغي الغربي في سطوة جبروته، للمستعمر الغاشم فيما فرضه بقوته الظالمة علىٰ الناس من شريعة تحفل وتحتفي بالظلم والشر والبغي والرذيلة، وتجترحها حربًا شعواء علىٰ مقدسات العدل والخير والقسط والفضيلة والشرف والكرامة.

يريد منا ذلك القانوني أن نظل عبيد هؤلاء الطغاة البغاة الذين وأدوا كرامة الإنسانية، وهووا بها إلىٰ حضيض التسفل والدناءة، وساموها الخسف والهوان والذل المرير، يود لنا هذا الأستاذ المتضلع في قانون المستعمرين أن نظل أسارىٰ القيود والأغلال لإنجلترا وأمريكا وفرنسا وغيرهم من أولئك الذين يعملون منذ كانوا، وحيث كانوا علىٰ وأد الإسلام، وإفناء المسلمين، وتدمير العروبة والعرب، وإهلاك كل جنس بشري لا يلوث عرقه الدم الأزرق الخبيث!!

يريد منا هذا المبشر بعدالة البغي الغربي أن نكون فيما نعتقده، ونؤمن به وندين

به ونفكر فيه، ونخبت له، ونجاهد من أجله، ونقيم عليه بناء حياتنا الدينية والفكرية والاجتماعية والسياسية، وننشئ عليه أولادنا، ونُعَبِّد به سبيل المستقبل للأجيال القادمة من المسلمين والعرب؛ يريد بما بَشَّر به، أو بما شرعته له عبوديته لأصنام الغرب وأوثانه وطواغيته أن نعيش حتىٰ تفنىٰ الخليقة أحلاس مادية الغرب وسطاه الحقود، وعبيد شهواته وأسارىٰ بطشه، وحملة القماقم في مواكب جوره الظلام!!

لا يا أستاذ قانون الاستعمار!!

لقد نهضت مصر نهضتها المشرقة، ووثبت وثبتها التي أجفل منها طواغيتك، وتألقت بها فوق الذرىٰ أمجاد المسلمين والعرب، وثارت ثورتها المباركة المجيدة التي قضت علىٰ دعاة العبودية والخنوع للمستعمر، صنعت مصر هذا، لا لتكون إمعة في الحياة، ولا متطفلة علىٰ الفتات المسموم من مائدة سادتك الغربيين، ولا سائرة وراء الموكب الذليل يسوطها بالعذاب جلاد القافلة الشرود، لا لا، وإنما صنعت مصر هذا المجد بعزمة قوية لا تنكص، ولا تنكس العلم، لتشيع بين الناس الخير، ولتنشر العدل، ولتبسط الرحمة، ولتجمع الكل علىٰ كلمة سواء، ولتسلك بهم سوي السبل، فيؤمنوا بالله وحده، وتخبت له قلوبهم، فيسمو بهم الإخاء الكريم في محبة الله وحده؛ صنعت مصر ذلك لإنهاض المسلمين جميعًا في مصر وغيرها من كبوتهم التي جناها الغرب عليهم بإلحاده وزندقته، ولتعمل معهم صادقة العزم علىٰ تثبيت دعائم ما شرعه الله من توحيد خالص، وإيمان صادق، وعدالة كريمة، ومساواة نبيلة، ومحبة شاملة؛ صنعت مصر ذلك لتعيد إلىٰ العرب أمجادهم السوالف الخوالد علىٰ الزمن، ولتعمل معهم علىٰ إيجاد حياة

فاضلة تسع الكل في رحابها الفساح مشرقة الود، رفافة بالأخوة الشاملة؛ فأمسك عليك رأيك وهواك أيها السيد!!

لن يصغىٰ إلىٰ وحيك الاستعماري مسلم ولا عربي، فإنما هي جذوة توقدت، ولن تنطفئ، لأن رعاية الله تمدها بالحياة المشتعلة حماسًا وقوة واتقادًا وعزيمة صابرة مكافحة، وقد اعتزم الجميع نشدان الحرية الكاملة بالإيمان بالله القوي وحده، لا بإنجلترا وأمريكا وفرنسا!!

اعتزموا أن ينالوها من يد الله وحده بما يبذلون في سبيله من دم ومال، لا من يد من اعتزمت وحدك أن تحرق البخور في هياكل أصنامهم المتداعية.

ثم قل لي أيها الأستاذ القانوني: أدرست ما في الكتاب والسنة من شريعة مطهرة؟

هذه الشريعة التي تحنو ظلالها الوارفة علىٰ من لا يدينون بها، وترويهم بسلسلها العذب – ما داموا مسالمين – وتحقق لهم حياة تورق بالسكينة والطمأنينة والسلام الكريم.

أوقن أنك، إما أن تكون قرأت، ولكن لم تفقه مما قرأت شيئًا لما غَشَّىٰ علىٰ فكرك من عصبية عمياء صماء لقانون الغرب الملحد، فَرُحْتَ تتهم شريعة الله بما اتهمتها به، وبما يبرأ منه المسلم الحق، والعاقل الرشيد. وإما أن تكون لم تقرأ شيئًا، فلم تؤمن بشيء، فحكمت بهواك ضنًّا بفكرك أن تكلفه استهداء الحق واليقين من الكتاب والسنة، فخالفت حتىٰ أول مبادئ العدل الذي تزعمه لقانون آلهتك الغربيين، إذ حكمت بالهوىٰ أو بالجهالة في قضية لم تسمع فيها سوىٰ فرية الخصم البلقاء، فأعنت علىٰ الحق الكريم، باطل الخصم الظلوم، وحمّلت المجني عليه وزر الجاني اللئيم!

وأكاد ألمح أنك تريد بما ذكرته حدود الله من قطع ليد السارق، وجلد أو رجم للزاني، وغيرهما مما حده الحكيم الخبير الخلاق لحماية الجماعة من سطوة الفرد وبغي شهواته، ليس الإسلام هو هذا فحسب، وإنما هو قبل هذا توحيد وعدل وإحسان وإخلاص وصلاح للعباد في الدنيا والآخرة، فإذا آمن الناس به، وعملوا بما شرعه الله، فلن تجد من يحتاج إلىٰ السرقة، أو يقترف ما به يقام عليه حد من حدود الله، فالجماعة في الإسلام أُخُوَّةٌ وتعاون وتكافل وتراحم وموالاة رحيمة في السراء والضراء، ليس فيها سيد ولا مسود، ولا عزيز يطغىٰ علىٰ ذليل، ولا جائع يبيت علىٰ الطوىٰ وأخوه المسلم يشكو بطنة التخمة كما نرىٰ في كل جماعة لا تدين بدين الحق.

ولقد جهد طاغوتك الغربي بماله وقانونه وقوته مئات السنين، فلم يستطع يومًا إيجاد حكومة صالحة، ولا مجتمع صالح، أما الرسول ﷺ ومن بعده أصحابه، والمهتدون بهديه، فقد سجل التاريخ لهم أن الإنسانية لم تسعد في حياتها بمثل ما سعدت به في حكمهم الصالح وحكومتهم الدينية الرشيدة، حتىٰ لتكاد الجريمة الفردية أو الجماعية تعد علىٰ أصابع اليد الواحدة في تلك المجتمعات الصالحة الفاضلة، فأين هذا مما نسمع به من جرائم تخزىٰ لها وبها الإنسانية كل ساعة في مجتمعاتك الغربية؟! ويفزع التاريخ من هولها الرهيب؟

لقد كان ذلك كذلك لأن المسلم حينذاك كان لا يتقي غير ربه، ولا يعمل إلا لوجهه، ولا يخاف إلا منه، فكان له من هذه التقوىٰ حاكم رشيد ورقيب يقظان يحول بينه وبين أن يزل، ومن هذه اللبنات القوية شُيِّد المجتمع الإسلامي، فلم يجد الحاكم سارقًا يقطع يده، ولا زانيًا يرجمه أو يجلده، اللهم إلا قلة قليلة معدودة

علىٰ أصابع اليد، ومع هذا فإن تلك القلة حين سقطت استيقظ فيها الضمير الديني، فجاءت تعترف راضية بما جنت، ليقام عليها الحد القاتل، فتلقىٰ الله قدسية العرض والعفة والإيمان، فلم يكن هؤلاء الذين أجرموا إلا ضحايا لحظة طاشت فيها غرائزهم، حتىٰ إذا رد الجماح، أبوا أن يغفروا لأنفسهم ما اجترحوه وأبوا أن يكذبوا علىٰ الله، وكانوا بمنجاة من الحد لو طوعت لهم شهوة الحياة الكذب، بل النكول عما اعترفوا به، ولكنهم استحبوا الموت والعذاب جلدًا أو قطعًا أو رجمًا علىٰ أن يلقوا الله وقد خانوا أمانته مرة واحدة، أو كذبوا علىٰ الله كذبة واحدة!!

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، في تلك الأخوة الصادقة، وهذه الموالاة الرحيمة تعيش الجماعة الإسلامية، فلا شرف بالأحساب، ولا بالأنساب، بل الكل في رحاب الله أحبة، وفي عبادته إخوة، وللجهاد في سبيله يعملون، ألم يأتك نبأ قوله ﷺ: «**إن أنسابكم هذه ليست بسباب علىٰ أحد، وإنما أنتم ولد آدم طف الصاع لم تملؤه؛ ليس لأحد فضل علىٰ أحد إلا بالدين أو عمل صالح**[1]»[2]، وقوله: «**إن الله عَزَّوَجَلَّ قد أذهب عنكم عُبيَّة**[3] **الجاهلية، وفخرها بالآباء. مؤمن تقي، وفاجر شقي، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام، إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون**

(١) أحمد والبيهقي.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٥)، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في المشكاة (٤٩١٠).

(٣) الكبر.

علىٰ الله من الجُعْلان التي تدفع بأنفِها النَّتن»[(١)]،[(٢)] وقوله: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره. التقوىٰ هاهنا** - مشيرًا إلىٰ صدره - **بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم علىٰ المسلم حرام دمه، وعرضه، وماله**»[(٣)][(٤)].

ثم ألم يأتك نبأ هذا البر الإلهي الأسمىٰ باللقطاء، إذ يقول سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]؟ ثم اصغ جيدًا إلىٰ الرحمة فياضة الخير والندىٰ تنهل رفقًا وإحسانًا من قوله ﷺ عن الخدم وغيرهم: «**إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا يكلفه ما يغلبه، فإن كلفه ما يغلبه، فليعنه**»[(٥)]،[(٦)] ومن قوله: «**إذا صنع لأحدكم خادمه طعامه، ثم جاء به - وقد ولِيَ حره ودخانه - فليقعد معه، فليأكل، فإن كان الطعام مشفوهًا**[(٧)]**؛ فليضع في يده - أكلة أو أكلتين**»[(٨)][(٩)].

ثم تأمل كيف يدعم الله الحياة الاجتماعية للإنسانية بمثل هذا التكافل والتضامن وذلك بيِّن في قوله ﷺ: «**من ترك مالًا فلورثته، ومن ترك كلًّا**

---

(١) أبو داود والترمذي.

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب: الأدب، برقم: (٥١١٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٧٨٧).

(٣) مسلم.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) أبو داود.

(٦) سبق تخريجه.

(٧) أي قليلًا علىٰ قدر شفة صاحبه.

(٨) البخاري ومسلم.

(٩) أخرجه البخاري، كتاب: الأطعمة، برقم: (٥٤٦٠)، مسلم واللفظ له، كتاب: الأيمان، برقم: (٤٢/ ١٦٦٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإلينا»[١][٢]، وفي قوله: «**أنا أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم، من ترك مالًا فلأهله، ومن ترك دَيْنًا وضياعًا، فإليَّ وعَليَّ**»[٣][٤]، هذا هو الضمان الاجتماعي في سموه ورحمته، إنه ليس منحة تتفضل بها الدولة مانّةً بها، وإنما هو فرض مقدس عليها للمعوزين، وفوق هذا فرض الله الزكاة في المال والحرث والأنعام، وفرض في كثير من الكفارات إطعام المساكين، وندب إلىٰ الصدقات، وجعل الصدقة قرضًا يقرضه العبد لربه.

يا لأستاذ القانون لو أنه لمح إشراق الجلال والجمال والرحمة والحب في قوله جل شأنه ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: ١١]، أترىٰ إلىٰ الله العلي الكبير، كيف يجعل ما يقدم إلىٰ الفقير قرضًا له؟!

أَفَتُخْدَش بعد هذا كرامة الفقير، أو يضن أو يمن عليه أخوه المسلم الغني؟! وهل يقترف هذين مؤمن يوقن أنه يقرض ربه الكريم الغني؟!

هذه يا دكتور قانون الاستعمار بعض لمحات الحياة الاجتماعية في الإسلام، فهل تجد بعد تطبيق هذا تطبيقًا صحيحًا من يحتاج إلىٰ السرقة، أو من نعتذر عنه إذا خانت يده؟!

ألا إن من يسرق هذه الجماعة المتآخية، وقد كفلت له بأمر الله كل شيء

---

(١) البخاري ومسلم.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أبو داود والترمذي.

(٤) سبق تخريجه.

يستحق يا سيدي الحد الذي شرعه الله؟ وهو قطع يده، فما تستحق هذه اليد التي بُذِل لها خير العطاء، وَوُصِفَ البذل لها بأنه قرض يقدم إلىٰ الله، فخانت الباذلين من إخوانه الأحبة، ما تستحق إلا أن تبتر، فقد خان الله ورسوله، وخان الجماعة الإسلامية، ومن البر البالغ الرحمة به وبتلك الجماعة أن تقطع يده، ولكن مع ذلك تبقىٰ له يد أخرىٰ لعله يحميها بتقوىٰ الله من الخيانة الآثمة، فيتجاوب إيمانًا وفكرًا وشعورًا وجهادًا مع هذه الجماعة التي تبني نفسها بالإيمان الحق بالله، وتبني صرح الإنسانية الأسمىٰ بأخوتها الرائعة، وجهادها المشترك.. هذا حد السرقة.

ولعلك يا دكتور تلمح حكمة الله في حد الزنا، وأنه حق يجب العمل به، فمن الدلالة علىٰ موت الضمير، والفجور في الجحود ونكران الجميل، خيانة هذه الجماعة، بهتك عرض يراه كل مسلم عرضه الذي يجب أن يقاتل دونه، وقد تجلت رحمة الله بالغة في هذا الحد، فجعل حد الذي لم يتزوج مائة جلدة، أما المتزوج فأمر برجمه، فلهذا مندوحة إذا استبدت به النزوة العارمة، أما ذاك فخفف الله عنه رعاية لحاله، ثم ما بال المتزوج يأبىٰ - وعنده الطيب - إلا أن ينتهب الخبيث؛ ألا تراه بفعلته النكراء قد صمم علىٰ أن يظل معولًا يهدم أعراض هذه الجماعة وأنسابها؟! فعنده حلاله البين يستطيع به أن يتقي هذا الحرام المكحول الإثم والغواية، ولكنه أبىٰ إلا أن يعيش حيوانًا شرسًا ضاريًا ينهش الأعراض ويعرقها طياش البهيمية، مستسفل النزوة، فكان لابد من قتل هذا الوحش إنقاذًا للقطيع الوديع المسالم، يرعىٰ في حمىٰ الإيمان ومراح المروءة والنخوة والرجولة والأخوة العامة.

بهذا الحد حمىٰ الله أنساب الإنسانية، وأعراضها، ودفع الأماني ظمأىٰ إلىٰ الزواج المبارك، أما قانونك فغمر وجه الأرض باللقطاء، ولطخ جبين الإنسانية

بالجريمة النكراء، ودفع الذئاب ظمأىٰ إلىٰ الدم المسفوح!!

قانونك يا سيدي يبيح لصاحب العرض قتل العادي عليه إذا فجأه، فما بالك تأبىٰ علىٰ الله أن يقتل هذا الوحش الساغب إلىٰ الجريمة؟

ثم ألا ترىٰ كيف فرض الله لإثبات هذه الجريمة، أن يراها أربعة شهود يشهدون أنهم رأوا الوحش ينزو علىٰ الفريسة المستسلمة؟!

في فرض هذه الشهادة من أربعة يتبين لك علىٰ أية ذروة شامخة رفيعة وضع الله عرض المسلم حتىٰ لا يناله أذىٰ، ويظل في إشراق عفته، وألق قدسيته، بل في فرض هذه الشهادة يبين لك جليًّا أن الله لا يحب ولا يرضىٰ أن يوصم عرض بهذه الفاحشة.

حتىٰ إذا استعلن الباغي، وأبىٰ إلا أن تشهده جماعة من أربعة وهو يقيء جريمته وينزو من حيوانيته قيحها المنتن، كان لابد وأن يجعل الله للمسلمين عليه سبيلًا، فيقتلوه كما قتلهم، ويفضحوه بشهود عذابه كما فضحهم.

أرأيت إلىٰ المجتمع الإسلامي الأول، يسعىٰ شبابه وشيبه إلىٰ الزواج، ويقف المسلم دون عرض أخيه المسلم، حتىٰ إذا سمع عنه ما يشوب قدسيته، قال مؤمنًا: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ۝١٦﴾ [النور: ١٦] كما علمهم الله في سورة النور، أما نتيجة العمل بقانونك فكانت هذه الأعراض المسفوكة، وهذه الأنساب المثلومة، وهؤلاء الفواسق اللاتي يترامين علىٰ الأنياب والأضراس تمزق لحومهن علىٰ قارعة الطريق، وراعي القطيع يغري الذئاب أن تفترس قطعانه، بل يفخر أن وجد لشاته الشرود ذئبًا يفترسها بين عينيه الضاحكتين للجريمة! وهؤلاء الفساق يحطمن الخدور، وينتهبن شرف العذارىٰ الحالمات.

ألا فاسمع أيها الدكتور، وليسمع معك عباد طواغيت الغرب: لقد آمن المسلمون في مصر وغير مصر، أن حياة العزة والمجد والكرامة، وأن العدالة المشرقة والمحبة السامية، والروحانية الصافية، آمنوا أن كل ذلك نبع من شريعة الله، وأن لا قوام للعالم الإسلامي بل الإنساني كله، إلا بهذا الدين الحق، ينعم بهديه وعدالته كل إنسان علىٰ وجه الأرض.

ثم إن المسألة ليست مسألة شريعة وقانون فحسب، بل إنما هي قبل ذلك مسألة إيمان وكفر، فليختر كل إنسان لنفسه ما يشاء منهما، والله غالب علىٰ أمره.

